البناء الاقتصادي في الريف

المقدمة: يعد الاقتصاد أحد دعائم الحياة الأساسية لأية جماعة إنسانية، وفي حالة الجماعات الريفية نجد أن البناء الاقتصادي يحمل بين طياته بعيدا عن الجوانب المادية التي تميزها، الكثير من الممارسات الثقافية والدلالات الرمزية التي سنقف على بعض تفاصيلها في هذه المحاضرة.

1. العمل الفلاحي والزراعي والرعوي (تربية الغنم والماشية): عمل سكان المجتمعات الريفية منذ القديم على تنويع مواردهم الاقتصادية، بعدما أدركوا استحالة الاعتماد على مصدر واحد، ومن ثم فإنهم تعاطوا للزراعة والغراسة وتربية الماشية واستغلال الغابة، إلى جانب أنشطة أخرى كالحرف التقليدية وبعض التجارة، وإن كانت الفلاحة (الزراعة وتربية الماشية) هي العمود الفقري لاقتصاد هذا المجال.

1.1. العمل الفلاحي والزراعي: يذهب **ابن خلدون** في مقدمته إلى التعريف الفلاحة بأنها: "النظر في النبات من حيث تنميته ونشوئه بالسقي والعلاج، وتعهده بمثل ذلك" فهي إما زرعا أو غرس. **أما عبد الغني النابلس** فيشير في افتتاحية كتابه ***الملاحة في علوم الفلاحة***"، إلى هذا المصطلح بقوله: "معنى فلاحة الأرض هو إصلاحها وغراسة الأشجار فيها وزراعة الحبوب المعتاد زراعتها، وإصلاح ذلك وإمداده بما ينفعه ويجوده ويدفع الآفات عنه، ومعرفة جيدا الأرض ووسطها والدون منها. ومعرفة ما يصلح أن يزرع أو يغرس في كل نوع منها من الشجر والحبوب والفواكه والخضر.. والوقت المناسب والمختص بزراعة كل صنف والهواء الموافق لذلك وغراسة ما يغرس فيها، وكيفية العمل في الزراعة والغراسة.. ومعرفة أنواع المياه التي تصلح للسقي لكل نوع منها وقدره، معرفة الأزبال وإصلاحها، وما يصلح منها بكل نوع من أنواع الأشجار والخضر والزرع.. وكيفية العمل في عمارة الأرض قبل زراعتها وبعد غراستها وتزبيلها وتعديلها لجري الماء عليها بعد سقيها، وتقدير ما يحتمل من الأرض من أنواع البذر.. وعلاج الخضر والأشجار من الآفات اللاحقة بها، وتدبير ذلك كله والقيام عليه بما يصلحه.

لقد اتسمت المجتمعات الريفية المغاربية، خلال فترات مبكرة من تاريخها حسب الدراسات التاريخية، ببنية اجتماعية واقتصادية تمكنه من إعادة إنتاج نفسه بصورة مستقلة عن كل تدخل خارجي، ومن أجل ذلك وضع لنفسه تنظيما خاصا يكفل له الاستمرارية في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية بشكل مستقل.

فعلى مستوى البنية الاقتصادية كان التنظيم الإنتاجي يتسم بطابع التداخل بين النشاط الزراعي التوسعي والنشاط الرعوي وحرصه على إيجاد نوع من التوازن بينهما، غير أن هذا التوازن لم يكن يتسم بديمومة تضمن له الاستقرار بسبب التوتر القائم بين محدودية وطبيعة الإطار الفيزيقي والجغرافي والمناخي وكثافة السكان الذين يعيشون في نفس الإقليم، مضافا إليه ضعف و هزالة الأدوات المستعملة في تسخير معطيات الطبيعة لحاجياتهم و متطلبات وجودهم المادي، مما جعل الريفيين يلجئون إلى أنشطة تكميلية مثل استغلال الغابات والصناعات الحرفية وغرس الأشجار المثمرة وإنتاج الخضروات والفواكه. إن المنطق الداخلي للمجتمع الريفي كان، إذن

يرتكز على مبدأ التكيف والتوازن مع البيئة الجغرافية والمناخية والطبيعية. أما نظام الملكية، فكان قائما على الملكية العائلية غير القابلة للانقسام في ارتباطها بالنظام القبلي الذي كان سائدا في هذا العهد، وهو نظام يخضع لقواعد الأعراف المتأصلة في المجتمع الريفي ويرمي إلى حمايتها بواسطة مبدأ الشفعة من كل ممارسة تؤدي إلى إخراج الملكية بواسطة الشراء والرهن، عن نطاق الجماعات الريفية. غير أن متوسط هذه الملكيات، حسب بعض الدراسات لم يكن يتجاوز 13 هكتارا. وعلى الصعيد الإجتماعي، كان المجتمع الريفي يتسم بالطابع القبلي منذ عهود بعيدة. "فإن التاريخ الاجتماعي، كما يقول **ولف Wolf** كان موسوما ببنيته القبلية وهذا منذ عهود الفاطمين والموحدين والمرينيين.

وتتكون التركيبة القبلية من مجموعة من الوحدات الاجتماعية بدءا بالعائلة الكبيرة وانتهاء بالفرقة، وهي جماعة تنحدر من جد واحد. ويضطلع هذا المجتمع يضبط الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعسكرية التي تمكنه، حسب **مارك كوت Marc Côte**، من ضمان إعادة إنتاج ظروف وجوده المادية منها والمعنوية، بعيدا عن كل تدخل أو إكراه خارجي.

ولا يعد في هذا الصدد، النشاط الفلاحي نشاط قوامه الجهد المادي فقط، حيث تكشف بعض الدراسات الأنثروبولوجية، أن الزراعة تعتبر رافدا كبيرا للثقافة الشعبية بالمناطق الريفية كما هو حاصل في الحالة الجزائرية. وذلك بداية من أسماء الشهور أو المواسم الفلاحية، والتي منها نذكر: "غشت" و"دجانبير"، و"اشتنبر"، و"توبر" و"الناير". كما تضرب بعض الأمثال الشعبية لتحديد المحاصيل التي تجنى وتزرع في هذا المواسم، فيقال مثلا: ***الناير بو لكباير، انتف اللفت واحرث لبحاير***". ففي هذا الموسم "الناير"، يتم جني (نتف) اللفت (الفجل)، وتزرع "لبحاير" مثل البطيخ الأحمر وغيرها. كما يتم في مناطق الجنوب الاحتفاء بالمعتقد، حيث تقال بعض الأدعية والأقوال المأثورة أثناء عملية الحرث أو الغرس، كقولهم: ***الله يجعلها ارزقنا وأرزاق المسلمين***"، وهو دعاء يرغب صاحبه أن يكون ما يزرعه من الرزق المكتوب له، وأيضا قد ينال نصيب منه غيره.

أ. أنماط استغلال الأرض: كما أن طرق الاستغلال التي عرفتها الحياة الزراعية بالمنطقة لم تخرج هي الأخرى عن طبيعة بنية الأرض والى صورة العلاقات التي انتظمت حولها حيث شكلت صورة استغلال الأرض انعكاسا للصورة التي تظهر عليها بنية التملك التي هي بدورها انعكاسا للبنية الاجتماعية وما تفرزه من أشكال تنظيمية على المجال لذلك فقد خضعت الأراضي الفلاحية لنوعين من الاستغلال.

- الاستغلال المباشر: بالنسبة لنوع الأول يتميز بمباشرة صاحب الأرض استغلالها بنفسه أو الاستعانة بأفراد عائلته ولا يفهم من هذا النمط انه يمثل نموذجا لاستغلالية العائلية التي تتحدث عنه الدراسات الاقتصادية المتعلقة بالعالم الزراعي كدراسة **شيانوف**، فعلى الرغم من الطابع العائلي الذي يكتسيه استغلال الأرض في هذا النموذج لاعتباراتها تستعمل يد عاملة عائلية، فهي لا تصل إلى ذلك التوازن بين العمل والإنتاج الذي تتحدث عنه الدراسات التي تناولت الاقتصاد الفلاحي العائلي. لذلك فأغلب الفلاحين الذين يباشرون العمل الزراعي بأنفسهم يملكون حقول صغيرة، ويقتصرون على زراعتها على بعض المزروعات المعيشية التي لا تسمح لهم

بالفائض والادخار. إن العمل المنجز من قبل الفلاح في مثل هذا النوع من الاستغلال، لا يصل كما تقول **رحمة بورقية** إلى الحدود القصوى لما يمكن أن ينجز في الحقل، وبالتالي لا يصل إلى انتزاع الكافي لتسديد حاجيات الأسرة.

➢ الاستغلال غير المباشر: وهو استغلال عن طريق نظام الخماسة أو تخماست، والذي يشكل هذا النوع من النظام الأكثر شيوعا في عملية الاستغلال التي كانت تعرفها بلدان المنطقة المغاربية، كما يعتبر من الطرق التقليدية المعمول بها في هذا المجال. والخماسة هنا، لا تعني تلك العلاقة بين العبد والسيد التي عرفها النظام الفيودالي وان شابهناها ذلك أن الإحساس الذي يشعر به العبد تجاه سيده ليس هو إحساس الخماس تجاه مالك الأرض. حيث العلاقة بينهما قائمة على نوع الاستقلالية في الاختيار والعمل، على الرغم من وجود بعض أشكال الاستغلال الذي يمارسه مالك الأرض على الخماس إلا أن هذا الأخير لم يكن يعيه بهذه الصفة، فأمام المساعدات التي يقدمها له صاحب الملك والحماية التي يوفرها له في كثير من الأحيان، علاوة على الهدايا التي يمنحها إياه في بعض المناسبات، كل ذلك إلى جانب تقريبه أو إدماجه في نطاق العائلة. وبفعل هذا الإخفاء الرمزي، لم يتمكن الخماسون عموما من اكتشاف العمق الاستغلالي للعلاقة المفروضة عليهم.

ب. العمل الفلاحي عمل جماعي: يحاول العمل الفلاحي القديم إشراك جميع أعضاء العائلة الممكنة دون اعتبار جنسها وسنها حيث يتم تشغيل الأطفال منذ سن السابعة من العمر أو أقل من ذلك ،إذ ان إستراتجية التكثيف التي هي أساس النظام الإنتاجي هي التي تحتم ذلك بسبب تعدد المهام الزراعية والرعوية الواجب القيام بها، مع وجود نوع من التخصص في بعض المهام حسب الجنس والسن ووفق القواعد العرفية، على النحو الأتي.

➢ دور الرجال في العمل الفلاحي: يمكن إجمال الأعمال التي يقوم بها الرجال في الأعمال التي تحتاج لقوة عضلية كالقيام بالحرث والحصاد وجمع المحاصيل، بالإضافة إلى تنقية السواقي. أما فيما يخص الأمور المتعلقة بالتوقيت الحرث والحصاد واختيار نوعية المنتوجات فيتكلف بها الكهول وخاصة الآباء.

➢ دور النساء في الإنتاج الاقتصادي والاجتماعي: كما تتحمل المرأة قسطا من أعباء الحياة مع زوجها، فهي إلى جانب قيامها بالأعمال المنزلية، نجدها تباشر أيضا خارج البيت المساهمة في العمل الفلاحي، فهي إنسانة مجدة ومجتهدة ومنتجة، تعمل بمثابرة كبيرة في ميادين عدة في المجالات الفلاحية كالزاعة وتربية المواشي أو الحرفية، حيث تتعاطى للنسيج الصوفي فتصنع الملابس وتهتم بصناعة الزرابي..

وهذا الدور ليس ميزة خاصة بالبلاد المغاربية فقط، بل تتشاركه أيضا مع العديد من الأرياف العربية الأخرى على غرار اليمن. حيث تكشف في هذا الإطار، دراسة: صالح أحمد الشعيبي على أن المرأة اليمنية عملت المرأة بجانب الرجل في حرث الأرض ورعي الأغنام وتربية الماشية إلى جانب أعمالها المنزلية. وقد زاد عملها هذا في الأرض خلال العقود الثلاثة الماضية، بسبب زيادة الهجرة إلى الخارج للبحث عن عمل وبخاصة في دول الخليج

والولايات المتحدة الأمريكية، فضلا عن الصراعات والحروب التي يشهدها المجتمع اليمني بين الحين والآخر، والتي أدت إلى حصد حياة الكثير من الرجال، الأمر الذي أدى إلى تحمل المرأة مسؤولية أكبر.

1.2. الرعي وتربية الماشية: في إطار الفلاحة المعاشية، يدمج الفلاحون عادة بين الزراعة وتربية الماشية معا، لذلك يكون أثر أحد النشاطين على الأخر واضحا. حيث كانت الأسر الريفية في المغرب العربي عموما، لا تخرج غالبا عن هذا النمط من النشاط الفلاحي، الذي تزاوج فيه بين الزراعة وتربية الماشية، واللتان يتكاملان في إطار فلاحة معاشية، تستجيب للمتطلبات الذاتية للفلاح. ذلك أن لتربية الماشية في البيئات القاسية متطلبات غذائية لا توفرها سوى الزراعة. وبذلك تساهم الماشية حسب عددها أو نوعها في توسيع المجال الزراعي. ورغم جهود الفلاح لتلبية الحاجيات الغذائية للمواشي، فإنه يجد نفسه مضطر إلى الاعتماد على السوق لشراء مواد كليئة مكملة، حيث يخصص الفلاحون جزءا مهما من المجال الزراعي للمزروعات الكليئة (علف الشمندر، التبن، النخالة ...)، والتي يمكنها أن تستفيد أيضا من الحصاد، وكذا من بعض المراعي القريبة خلال فصل الربيع.

واستخدم الإنسان الريفي لبعض أصناف الحيوانات، مثل: الأبقار والجمال والحمير من منطلق حاجته إليها في أداء مهامها الأساسية والمتمثلة في حراثة الأرض والري، وذلك من خلال جر المياه من الآبار السطحية من أجل ري الأرض الزراعية عبر القنوات، فضلا عن استخدام بعض الحيوانات على غرار الجمال والحمير لنقل مياه الشرب من الآبار إلى المنازل، ونقل مخلفات الحيوانات من الحظائر إلى الأرض الزراعية لاستخدامها كأسمدة، ونقل المحاصيل الزراعية من الأرض إلى المنازل، ونقل الفائض من المحاصيل الزراعية إلى المدينة لبيعها، كما كانت الجمال والحمير وسيلة نقل من القرية إلى المدينة.

ولهذا كانت كل أسرة تتنافس على زيادة إنتاجها من الأرض والحيوان، فشكلت الحيوانات الأليفة جزءً من ثقافة ومكونات الأسرة، فهي تسكن معها في منزل واحد، بل أن المساحة المخصصة لسكن الحيوانات في بعض الأسر أكبر من المساحة المخصصة لسكن أفراد الأسرة. فالفلاحين يحبون أراضيهم وحيواناتهم مثل ما يحبون أفراد أسرهم. كما تتجلى العلاقة الحميمة بين الإنسان الريفي وحيواناته في حرصه على تسميتها، كحرصه على تسمية أفراد الأسرة، وكأنه يدرك أن تسمية الحيوان ومناداته في مواقف الحياة اليومية المختلفة، تنشئ بينه وبين الحيوان علاقة حب وود، وبالتالي زيادة إنتاج الحيوان من الحليب ولاسيما الأبقار والأغنام والجمال.

2. رمزية الأرض: الأرض أنثى، وهي اسم جنس، التي عليها الناس هكذا يعرفها **لسان العرب**. فلماذا هذا التوصيف للأرض؟ وكيف يتجلى ذلك في المخيال الشعبي للمجتمع الريفي؟

للإجابة على هذين التساؤلين، تقتضي منا علاقة الإنسان الريفي بالأرض أولا معرفة كيفية استقراره في المجال، طالما أن الترحال كان هو السمة العامة قبل الانتهاء إلى خيار التوطن والاستقرار النهائي. فالأرض مصدر الجاه، وقيمة اقتصادية واجتماعية بل هي أساس إستراتيجي للقوة، ورهان جعل كل قبيلة تعيش عادة بين أراض في المرتفعات أو الجبال وفي أرض في المنخفض أو السهل.

الوظيفة الأساسية للأرض كانت توفير الحاجيات الغذائية الضرورية، وتوفير الشغل للأفراد الجماعات العائلية، وبما أنها الضمانة الأساسية لاستقرار الجماعات القبلية وبقائها، فإن هم الإنسان الوحيد هو الحفاظ على الأرض والدفاع عنها وذلك إما بالدخول في عنف مفتوح مع من يحاول استغلالها والتدخل فيها، أو بإصدار أعراف تمنع تقسيمها وتجزيئها. أما من الناحية الثقافية، فكان يضفي عليها دائما طابع القداسة اذ كانت في تصور الجماعة مثل الأم المعطاة التي تغدي الكل وتوحد في ملك الكل، أي في ملك الجماعة وليس في ملك الشخص الواحد. كما تعد الأرض كذلك، الرأسمال الأساسي لكل غنى محقق وثروة تفوق قيمتها باقي الثروات الأخرى، ولأكثر من ذلك أنها تجسد ثقافة الجماعة القائمة على التضامن، كما تلبي حاجياتها وفي مقدمتها الغذاء، مما أضفى عليها ميزة فريدة تتجلى في حب وعشق الناس لها.

هذا المعنى، نتلمسه في معرض كلام **هنري مندراس** عن علاقة الإنسان القروي بالأرض وارتباطه بها، والذي يذهب فيه إلى القول بأن المزارع التقليدي يقوم بزراعة حقله الذي ورثه عن أبيه وتعلم عنه الزراعة، ويأتي تعلمه للزراعة نتيجة ارتباطه الدائم بالأرض وبكل التفاصيل والمعلومات الجزئية المتعلقة بالعمل والإنتاج، إنه يشعر بأهمية حقله الذي يعرفه جيدا مثل ما يعرف الخالق مخلوقه. لأن الأرض أولا وقبل كل شيء إنتاج لا ينقطع، والفرد في المجتمع الزراعي يداوم وجوده في الأرض الزراعية ويزاول عمله فيها منذ الطفولة، حيث تعلم الحراثة مثلما تعلم باقي القيم والمعارف والسلوكات الحياتية الاجتماعية، كاللغة وقواعد التهذيب والأخلاق. وكل أمر أو فعل يهدف إلى فصل العمل الزراعي عن باقي الأنشطة والسلوكات الاجتماعية الأخرى، يعتبر خرقا للنظام الاجتماعي العام القائم على التأليفية كإحدى قواعد ومرتكزات الحياة الاجتماعية العائلية.

إلا أن هذا لا يترجم كل الحقيقة، حيث أن الوعي التلقائي للريفيين بأهمية الأرض وقداستها لديهم، لا تنبع فقط من كونها مصدر يدر عليه كمجال بيئي زراعي الخيرات المادية كعطاء وهبة دون مقابل، فبين الإنسان الريفي والأرض علاقة تفاعل ومحبة، تكشف عمق القوة الرمزية السارية في ذهنية المجتمعات الريفية، لذلك فلا غرابة أن يتم تقديس الأرض وتعظيم مكانتها في نفوسهم إلى حد الموت دفاعا عنها. وهكذا إذن تتم وحدة الأرض للإنسان، عبر رمزية عميقة تشتغل عبر اللاشعور الجمعي، لأن الإنسان بالريف يفضل أن يخسر ماله كله في سبيل الحفاظ على كرامته والمتمثلة في الأرض، وهنا يمكننا فهم المغزى من المثل الشائع في المجتمعات الريفية والقائل: ***اللي باع أرضو باع عرضو***"، فإن فرطوا فيها فرطوا في شرفهم لدرجة أن الريفي لا يبيع أرضه إلا للضرورة القصوى، وإن فعل فسيعمل جاهدا حتى يسترجعها وبذلك يستعيد شرفه. وهذا يدفعنا للقول، بأن صورة الأرض ومكانتها عند الفلاح هي من صورة ومكانة المرأة عند الرجل، والتي ينبغي أن تصان وتحفظ من أن تطالها ليس فقط أيدي الغرباء بل حتى عيونهم، الأمر الذي يجعلهم يقدمون النفس والنفيس من أجل صونها والدفاع عنها.

3. رمزية الماء: تعد المياه مورد حياتي لا غنى لسكان الأرياف عليها، طالما أنها تشكل أساس النشاط الاقتصادي الذي يقومون به، والذي يعتمد بالأساس على زراعة الأرض وتربية بعض الحيوانات، الأمر الذي

أكسبه مكانه كبيرة في حياتهم، والتي تتجلى بشكل واضح في في الموروث الشعبي والأمثال المتداولة في العديد من المناطق، والداعية إلى حسن استغلاله ومدحه، واستعمال كل الوسائل للحصول عليه، على غرار: ***الله يعجلك كي الماء، تخرج منك كل نعمة***"، "***أرفد الماء ولو كان تحط على الما***" "***وما تهرق ما، حتى تصيب ما***".

وتعود فترات تقديس الموارد المائية ومنابعها في بلدان شمال إفريقيا، حسب عدد من كتابات المؤرخين إلى مرحلة ما قبل التاريخ، فهذه المادة شكلت للإنسان الريفي عموما مادة للتقديس وللممارسة الطقوسية التي ارتبطت بمفهوم المقدس وصوره داخل الفضاء الثقافي والاجتماعي عموما.

وقد أدت البنى الزراعية الراسخة بمنطقة الريفية داخل الضمير الجمعي لساكنتها، دور ترجمة مجموعة من الطقوس التفاعلية والجماعية التعبيرية، وذلك سواء في فترات انحباس المطر عن الأرض، أو عندما تنضب مياه العيون والأنهار وتجف الآبار من مياهها، عندئذ يتم إحياء طقس الاستمطار طلبا للغيث، وذلك بواسطة استحضار شخصية وصورة المرأة وأدوارها النمطية المتعلقة بالخصوبة والإثارة الجنسية، مع إعادة إنتاج الرموز والدلالات نفسها التي ارتبطت بها منذ القدم. فقطرات الماء الساقطة من السماء إلى الأرض على شكل مطر، والتي تتسبب في إرواء الأرض وإنماء الزرع، تنطوي على مغزى عميق ورمزية كبيرة في التفكير الإنساني، فهذه القطرات تمثل في الأساطير القديمة قطرات المني التي يطلقها الذكر، والمتمثل في اعتقادهم في السماء الواهبة، لتخصيب الأنثى / الأرض المستسلمة. هذه العملية الحياتية هي في عمق فلسفة الأديان والحضارات، ولها دور كبير جدا في فكر الإنسان وتأملاته. وهو المعنى الذي نجده رائجا كثيرا في الموروث الشعبي بالأقاليم الجنوبية في الجزائر، والمعبر عنه بقولهم: **غراس الغروس**، أي بواسطته يسقى النبات والخضروات.

فالسماء عندما تمطر، **تقوم بإخصاب الأرض وإحيائها عبر التجدد وولادة الزرع والنبات**، فطقس: تلا- غنجا الزراعي الأصل **المرتبط بالأرض التي يتم إخصابها، فتقوم بولادة الزرع والنبات والأشجار الدالة على الحياة والضامنة لها**، ونستحضر هنا ما قاله **باشلار** في هذا السياق، عن كل هذه العناصر الطبيعية المجسدة للماء كمادة "رقراقة" و"جارية"، تتجسد على أرض الواقع وتعطيها الحياة، مادة نشاهدها في كل مكان تولد وتتعاظم، فالمنبع حسب **باشلار** أو العين المائية هي ولادة مستمرة ومتجددة للماء، تأسر صوره إلى الأبد لا شعور محبيها، وتثير بشكل لا منتهي أحلام يقظتهم.

ولهذا شكلت الطقوس المائية والزراعية موضوعا تدور حوله العديد من التمثلات الثقافية والاجتماعية المقدسمة لموضوع الماء، والتي تحيطه من جهة بهالة من الترهيب والغموض، ومن جهة أخرى ترفعه اجتماعيا (عرفيا ودينيا)، لتضعه على أقدس المقدسات، وهو بمنزلة الخيط الناظم لمختلف العلاقات الاجتماعية، وميكانيزما عضوية في تفعيل أو تعطيل آلية الصراع، وآلية التضامن والتلاحم ما بين المجموعات الاجتماعية المرتبطة بروابط دموية وعائلية.

ونلاقي في هذا الإطار، العديد من الإشارات الجد تعبيرية من الناحية الأنثروبولوجية حول طقوس الماء وقوة حضورها، مثلا داخل نص **إدموند دوتي** الموسوم ب: **السحر والدين بمجتمعات شمال إفريقيا**، الذي يسافر

بنا عبر سلسلة من الأشكال الإحتفائية بمورد الماء في عدد من المجالات المحتفية برموز الخصب والزرع والعطاء والمطر من حوز مراكش المشهور بطقس الموسم وحفل التراشق بالماء ما بين الأطفال، مرورا بفضاء تلمسان وطقس تبليل المنازل والأسطح والجدران والمارة من الناس بالماء، وربطه بفلكور الغناء من لدن الفتيات تبركا واستعطافا للسماء لتمطر، أما عند ساكنة **بني شوكران** فتقوم النساء بمصاحبة بقرة سوداء والتطوف بها داخل فضاءات الأضرحة أو بالقرب منها، فإن تبولت البقرة أثناء المسير وقبل انتهاء الاحتفال الزراعي، فهي إشارة رمزية حسب اعتقاد الساكنة المحلية على استجابة السماء واقتراب موعد نزول المطر للأرض، ثم الطقوس التي تتخلل احتفالات عاشوراء وعيد الأضحى والمولد النبوي الشريف وإلى غير ذلك من الطقوس الزراعية البالغة الدلالة على قوة حضور الماء في ثقافة وتصور وممارسة أغلب سكان بلدان شمال إفريقيا وعند السكان الريفيين تحديدا.

كما أن هذه الطقوس المائية، تعيد توثيق أواصل العلاقات القرابية والعائلية، وتحيي الزمن القبلي القديم وتستحضر أحداث تاريخه الايجابي ومفاخره، كما أن هذه الطقوس المائية تعمل على إحياء صور المقدس الشعبي ومجالاته، مثل: الأودية، العيون، الآبار، السواقي، الأضرحة.. إلخ. وهو أيضا آلية رمزية للعبور عبر الزمن الأسطوري من العالم الواقعي المادي إلى العالم الغيبي اللامادي، والمتصل بالتمثلات الدينية حول دور الفاعل (الله) وصوره. فالطقس المائي هنا، يؤدي دور الوساطة ما بين الزمن الدنيوي (داخل ثنايا الفصول الزراعية)، والزمن القدسي الذي ينحصر أثناء ممارسة طقوس الماء التواصلية، وتجلياتها مع قوى الطبيعة وتجسيد صورها بشكل أدمي أنثوي بالخصوص.

4. <u>ممارسة التويزة</u>: تختلف تسمية التويزة من جهة إلى أخرى، وممن نشاط إلى أخر، ويرجع بعض الرواة أصل التويزة إلى السكان الأمازيغ، خاصة أن هذه الظاهرة منتشرة بالبلاد المغاربية عموما. حيث يرجعون مصطلح التويزة إلى لفظة "**ويز**" الأمازيغية، والتي تعني الإعانة والمساعدة، أما حرف "ت"، فهو أداة تعريف لدى الأمازيغ. وقد أخذ العرب مصطلح "تويز" ونطقوه باللكنة العربية فأصبح "تويزة"، والتي تعبر عن حالة من الوحدة والتضامن بين مجموعة من الناس للقيام بجملة من الأنشطة العملية في مناسبات مختلفة.

أما اصطلاحا، فهي تجمع مهني وفني، يشترك في إنجازه مجموعة من الأشخاص بطريقة تطوعية لفائدة أحد عناصر المجموعة، وهي التي تتشكل حسب نظام دورة الحياة البدوية الريفية، فتتواجد في كل المواسم والمحطات الكبرى في حياة هذه المجتمعات. وتعرف التويزة عادة أكثر في المجتمعات ذات الأصول القبلية، والتي تتوارث فيه جملة من العادات والتقاليد والأعراف، التي تتناقل بطريقة شفوية تقليدية من جيل إلى أخر، لتؤسس ما بات يعرف بالتويزة.

وتميزت المناطق الريفية في ربوع المنطقة المغاربية عموما بسيادة هذه الظاهرة، والتي تعنى التعاون والتكاتف. أين تحتاج الكثير من الأعمال إلى تعاون الأفراد للقيام بها، ك: حفر الآبار، الزرع، الحصاد، جني الزيتزن، وإزاحة الرمال عن الأراضي الزراعية بوضع حاجز من سعف النخيل، والذي يسمى "أفراق" في بعض

مناطق الجنوب الجزائري، وغيرها من الأعمال الأخرى. خاصة أن هذه البيئات تتصف عادة بقسوة الظروف الطبيعية، ومشقة العمل الزراعي التقليدي فيها. كما أن أدائها لا يقتصر على العمل والجهد البدني المضني فقط، بل عادة ما ترفق هذا النوع من الأعمال بأغاني وأهازيج وإيقاعات شعبية ومدائح دينية وأذكار، وذلك في محاولة لشد الهمم والحث على العمل أكثر وكذا طلب للبركة وخلق جو من المتعة والمرح بين المشاركين، ليتم بعد الفراغ من الأشغال تحضير وتقديم وليمة على شرف المشاركين في العملية.

والتويزة بهذا المعنى، تعد ظاهرة اجتماعية معبرة عن حالة تضامنية موسمية بين أفراد المجتمع الريفي – القبلي، حيث يمكن أن تكون إما في:

- شكل تجمع نسائي في إعداد الصوف وقردشته وغزله، وكذلك نسجه أو في إعداد العولة من خلال جملة المراحل التي تمر بها من طحن الحبوب وإعداد العولة وغيرها.
- كما تكون أيضا في شكل تجمع عملي رجالي، مثل: عملية حرث الأرض والجز الأغنام وبناء المساكن.
- كما قد يشترك كل من الرجال والنساء في الأعمال التي تكون عادة خارج التجمع السكني، مثل عملية الحصاد وجني الزيتون.

ورغم أن الاستعمار الفرنسي لبلاد المغرب العربي عمل على استبدال هذا النشاط المجاني بنظام السخرة، وإجبار المواطنين على العمل وفق نظام الخماسة إلى غير ذلك من السياسات، بغرض تقليل الحمة بين السكان والقضاء عليها. إلا أنه مباشرة بعد الاستقلال، عاد العمل الجماعي من جديد للبروز، سواء من خلال التعاون في مجال إصلاح العيون، وحفر الآبار، والتضامن عقب وقوع الفيضانات والزلازل، كما عملوا أيضا على بناء الجسور وغيرها من الممارسات التي تدل التعاضد والتلاحم بين أبناء الريف الواحد.

كما أنه من بين أهم الأسباب التي جعلت ظهور التويزة أمرا ضروريا، هو الخوف من تلف المنتجات الزراعية في حال تركها لوقت طويل بعد نضجها بدون جني، فوجب على الفلاح المعني بالمنتوج جمع أكبر قدر ممكن من المتطوعين لضمان سلامة المحصول الزراعي. أضف إلى ذلك، أن فكرة التعصب للانتماء قد ساهمت هي الأخرى في نشأة التويزة، خصوصا إذا تعلق الأمر بالعائلات الممتدة التي تجمع بينها الروابط القرابية المتينة.

والتحضير لهذه الممارسة يتم بإعلان المتوز له عن نوع المساعدة التي يحتاج إليها (حرث، بذر، حصاد، جني المحصول..)، وبإعلانه أيضا عن الأدوات والعتاد الذي ينقصه كما ونوعا، ثم يحدد اوقت المناسب لانجاز عمله، فإذا جاء اليوم المتفق عليه، يهب جموع المتطوعين للمكان وهناك تقسم الأدوار، فيتعاونون على انجاز العمل المطلوب منهم حتى الانتهاء منه مهما كلف من جهد أو وقت.

5. <u>النشاط الفلاحي والزراعي في عالم الريف اليوم</u>: الحديث اليوم عن النشاط الفلاحي الزراعي لم يعد كما كان عليه الحال من قبل، فالتحولات التي تعرفها الأوساط الريفية المغاربية خصوصا والعربية عموما كثيرة ومتعددة، منها ما هو طبيعي بحكم تطور ونمو المجتمعات، ومنها ما هو ناتج عن الظروف والعوامل

الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي مر بها المجتمع الريفي. ونستعير في هذا الصدد من الباحث الفرنسي **هنري لوفيفر** تحليله، والذي يذهب فيه إلى أن العلاقة بين الحضر والريف، أو بين القرية والمدينة كما يفضل البريطانيون أن يدعوها، تغيرت بشكل جذري. حتى إن الفلاحين التقليديين اختفوا والريف تحضر، لكن بشكل أوجد نهجا استهلاكيا جديدا فيما يتعلق بالطبيعة (من عطلات نهاية الأسبوع، والرحلات الترفيهية في الريف إلى الضواحي ذات الأشجار المورقة والمترامية الأطراف)، ونهجا رأسماليا إنتاجيا لإمداد الأسواق الحضرية بالسلع الزراعية عوضا عن الزراعة الموجهة لتحقيق الاكتفاء الذاتي للفلاحين. إضافة إلى ذلك، توقع **لوفيفر** لهذه العملية أن "تنتشر عالميا"، حيث انحصرت اليوم الفجوة بين الريف والحضر على الصعيد العالمي بإيقاعات متباينة، لكن مما لا شك فيه أنها اتخذت المسار الذي توقعه لوفيفر. فقد بات العمل في حقل الفلاحة اليوم موكول في الغالب إلى الوافدين من خارج أقاليم الريف، الباحثين عن منصب عمل. وبدلا من أن تمتص الفلاحة الأيدي العاملة، بتنا نجد هروبا من العاملين في الفلاحة إلى باقي النشاطات الاقتصادية الأخرى. حيث انخفضت نسبة المشتغلين في الفلاحة في الجزائر من 60% بعد الاستقلال إلى أقل من 25% أواخر التسعينات. وهو المعطى يدفع إلى القول بأننا نشهد سقوطا قويا نسبيا ومطلقا للتشغيل الفلاحي، بالمقارنة مع مجموع التشغيل. وهذا ما دفع بعض الباحثين إلى التساؤل، هل هذا التطور طبيعي أم أنه نتاج لظروف خاصة بوضع اقتصادي وثقافي واجتماعي معين؟.

إن القطاع الفلاحي اليوم يشهد هروبا كبيرا لليد العاملة لصالح نشاطات أخرى، مما يعبر عن تفضيل للأعمال والأنشطة غير الفلاحية، وهو ما أدى ببعض المحللين إلى القول بأنه بات هناك "كره للعمل الفلاحي"، وخاصة من قبل الشباب القريبين من البيئة الريفية، والذين درجوا في حضن العمل الفلاحي ولهم خبرات مستفيضة عن ظروف العمل وأساليبه، مما يسمح لهم بممارسته دون عوائق، وعلى الخصوص عقبة قلة الخبرة أو الجهل بطرق العمل الفلاحي وكيفياته. وهذا ما يؤكده أيضا الباحث: صالح أحمد الشعيبي، في توصيفه لحالة الريف اليمني اليوم، حيث يرى أن مهنة الزراعة والرعي كانت أهم مصدرين رئيسين للدخل عند غالبية الجيل الأول وحتى الثاني إلى حد ما، ولكن مع الجيل الثالث في الوقت الراهن تنوعت مصادر الدخل، فجمع كثير من الناس بين أكثر من مهنة، كأن يمارس الزراعة كمهنة رئيسية رئيساً للدخل عند أغلب الناس، وإلى جانبها التجارة أو غيرها. أو يوفق بينين وظيفة عامة كالتدريس وفلاحة الأرض، فلم تعد الزراعة مهنة أساسية ولا مصدراً للدخل. ومن الأسباب التي أدت إلى تحول مهنة الزراعة من مهنة رئيسية لدى الجيل الأول إلى ثانوية لدى الجيل الثالث، نورد الأتي:

- اختلال العلاقة بين السكان والأرض مع الجيل الثاني والثالث بصورة أكبر، من خلال زيادة عدد الأسر والسكان. في القرى اليمنية مع بقاء مساحة الأرض المزروعة شبه ثابتة، وتفتيتها بسبب توارثها بين الأجيال وأصبحت مساحات صغيرة لا تستطيع الأسرة الصغيرة (النواة) فلاحتها لصغر حجمها وقلة مردودها.

➢ أما السبب الثاني فيتعلق بقلة الأمطار الموسمية وجفاف منابع العيون والآبار السطحية والتوجه العام فيفي مناطق الدراسة إلى زراعة القات بدلاً عن محاصيل الحبوب.

➢ أما السبب الثالث فيعود إلى فشل السياسة التنموية للدولة الذي أدى إلى مشاكل كبيرة في الآلات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والتعليمية وغيرها لسنا هنا بصدد الحديث عنها.

➢ أما السبب الرابع فيبدو من خلال تطلعات الناس إلى التعليم فقد حرصت كل أسرة فيفي الوقت الراهن على تعليم أبنائها الذكور والإناث، فلم تعد التضحية بالأولاد من الذكور والإناث بشكل خاص من أجل عملية رعي الأغنام وأعمال أخرى. كما كان معمولاً به مع الجيل الأول والثاني. فضلا عن تطلع الإنسان الريفي إلى كل جديد مادي أو قيمي مشوه، مما أنتجته ثورة التكنولوجيا والمعلوماتية في الوقت الراهن، والتي أدت إلى انتشار القيم الاستهلاكية على حساب قيم الإنتاج والعمل التي كانت سائدة في القرى اليمنية من قبل.

وبما أن مهنة الرعي ارتبطت بمهنة الزراعة في القرية العربية عموما، فقد تغيرت بالقدر نفسه إن لم تكن أكثر تغيراً من مهنة الزراعة، حيث تراجع الاهتمام بالثروة الحيوانية من قبل قطاع واسع من سكان الأرياف والقرى، بفعل تغير طبيعة العلاقة بين الإنسان وحيواناته الأليفة جراء اختلال العلاقة بين السكان والأرض، فقد تناقص عدد الحيوانات (الأبقار والأغنام) في كل القرى وتقلصت مساحات الرعي العامة.